٣- فن الكلام[١]

ليست العبرة بألفاظ الكلام فقط بل باللهجة التي يلقى بها هذا الكلام ، والتحية إن ألقيت بلهجة جافة كانت شتيمة ، والشتيمة إن ألقيت بلهجة حب كانت تحية ، والولد الصغير يعرف هذا بالفطرة . إن قلت وأنت ضاحك : (أخ يا خبيث) سر وابتسم ، وإن قلت وأنت عابس مهدد : (تعال يا آدمي يا منظوم) خاف وهرب .

وإن قلت لصديقك في الدار : (تفضل اقعد) كانت مكرمة . وإن قالها رئيس المحكمة للمحامي في وسط دفاعه كانت إهانة .

مع أن الكلمة واحدة ، وإن كتبت لم يكن بين حاليها اختلاف ، وما نقلها من حال إلى حال إلا اللهجة .

وخذ مثلًا أقرب كلمة (صباح الخير) ، إن صباح الخير قد يكون معناها : إني لا أبالي بك ولا أحس غيابك ولا حضورك ، وذلك إن قلتها ووجهك خال من كل تعبير ، وصوتك خال من الحرارة ، كأنك تردد جملة محفوظة . وقد يكون معناها : إني أعطف عليك ولكني أراك دوني وأحس أني أرفع منك - إن قلتها وأنت باسم بسمة (دبلوماسية) وقد أحنيت رأسك (ربع سانتي) انحناءة مصطنعة . وقد يكون معناها : إني صديقك المخلص لك ، إن قلتها بابتسامة صادقة وبلهجة طبيعية .

وإن برقت عيناك وأنت تقولها ، وارتجف صوتك حتى كأنه صوت (أحمد علام)[٢] في رواية مجنون ليلى كان معناها : إني أعشقك وأموت حبًا فيك .

وقد يكون معناها : إني أحتقرك وأزدريك ، إن قلتها وأنت مصغر خدك ، زاو نظرك ،

---

(١) من كتاب « صور وخواطر » لعلي الطنطاوي . توفي في جدة سنة ١٩٩٩م . يتميز بأسلوبه الجذاب والسهل الممتنع ، وبأدبه ومقالاته .

(٢) لشوقي عندما كان يمثلها ونحن شباب .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شامخ بأنفك . وقد يكون معنى (صباح الخير) سب الأب ، فإذا عوتب القائل قال : وهل شتمته ، هل قلت له شيئًا ؟ إنما قلت له صباح الخير .

وقد يكون للكلمة أحيانًا عكس معناها ، الذي يدل عليه لفظها ، يفهم ذلك من قرائن القول وظروف الكلام .

فإذا خرجت من الوزارة أنت وزميلك ، فاصطحبتما في الطريق ، حتى بلغت دارك ، تقول له : (تفضل معنا) . فيقول لك : في أمان الله ؛ لأن (تفضل معنا) هنا معناها : فارقنا واذهب عنا ، بدليل أنه لو أخذها على حقيقتها وتفضل معك ، لضقت به واستقبلته وعجبت منه .

وقد يطيل الزائر السهرة ، ثم يتهيأ للقيام فتقول له : (بدري كمان شوي) . ومعنى ذلك : لقد أطلت فاذهب .

وإذا مللت من حديث محدثك ، تقول : (لا يمل) وهو في الحقيقة قد مل .

وتقول : (غير مقطوع حديثك) وقد قطعته وفصلت رأسه عن جسده ، أو بترت ذنبه عن جسمه .

وقد يفقد الكلام كل معنى ، ويصير جملًا فارغة ، كقولك لمن تلقاه : (كيف حالك ؟) ، ولا يهمك حقيقة أن تعرف حاله ولا ماله .

ويقول لك : (مشتاقون) ، وما هو بالمشتاق إليك ولا المفكر فيك .

ويقول : (طمني عن الصحة) ، كأن صحته تشغل فكرك ، وتطرد النوم عن عينيك ولا تطمئن حتى تثق بكمالها وتمامها .

كنت مرة خارجًا من المستشفى ، بعد عملية جراحية ، لا أزال أقاسي آلامها ، فلقيني صديق لي فقال : كيف الصحة ؟ ، فظننته يسأل عنها حقيقة ورحت أشرح له ما بي وأصور ما أجد وتكلمت خمس دقائق بمقدار حديثي في الإذاعة - على مائدة الإفطار - في رمضان فلما انتهيت سكت ونظرت إليه ، أسمع منه ، فقال : كيف الصحة إن شاء الله بخير ، وإذا به

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لم يسمع من شرحي وبياني شيئًا .

ودليل آخر ، هو أسلوب التحية هنا وفي مصر وفي الشام يقول لك من تلقاه : (كيف أصبحت ؟ كيف الأولاد ؟) فتجيبه بما تيسر ، فيعود فيقول : (وكيف أصبحت وكيف الأولاد ؟) يعيدها - كما تعاد (ازيك) في مصر، و(ايش لونك) في الشام والعراق ، سبع عشرة مرة على الأقل - فلا تدري بماذا تجيب .

ومن الكلام الذي لا يُدْرى المراد منه سؤال إخواننا الصحفيين كل من يلقونه ، في كل مناسبة ، وفي غير مناسبة ، (عن شعوره) عند رؤيته هذا المشهد ، و(انطباعه) - وما أدري ما معنى (انطباعه) - لذلك الحادث . ولو حققت عن مراد السائل من سؤاله وجدت السائل لا يعرف حقيقة ما يريده ، فضلًا عن أن يعرفه المسؤول .

ولهجة الكلام وملامح الوجه ، تقلب المعنى قلبًا . تصوروا رجلًا يدخل المأتم الحزين ، وهو باسم الثغر ، منطلق الوجه ، ويقول بلهجة مرحه : (عظم الله أجركم ، والله تألمنا لمصابكم) . أو يدخل الفرح وهو دامع العين ، ويقول بلهجة باكية : لكم تهانينا ، إننا فرحون لفرحكم .

إن من يسمعه ، يقول : إنه أحمق ، أو كاذب . ومثله مثل هؤلاء المغنين الذين يسمون أنفسهم قُرّاء وما هم بالقراء ، يتلون آية العذاب من كتاب الله التي تقشعر لها الجلود بصوت مرح ونغمة مرقصة ، ويتلون آية البشرى والنعيم بنغمة حزينة وصوت باك .

وإن من إمارات الحكم على شخصية إنسان لهجة كرمه ، فمن كان يتكلم بصوت هادئ ولهجة متزنة ، وحروف واضحة ، كانت له شخصية المهذب النبيه ، ومن كان مرتفع الصوت ، حاد اللهجة يتشدق في كلامه أو يمط الحروف لم تكن له هذه الشخصية وقد ترى امرأة جميلة الوجه وأخرى دونها جمالًا ، ثم تسمع كلامهما ، فتجد الأولى خشنًا ولهجتها قاسية ، وهي مسترجلة في نطقها ، وتجد للثانية صوتًا رقيقًا ولهجة ناعمة ونغمة حبيبة فيزيد في عينيك جمالها حتى لتجدها أجمل من صاحبتها ، بل ربما شوه كلام الأولى صورتها في بصرك حتى رأيت جمالها قبحًا .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com